



جمهورية مصر العربية
جامعة الزقازيق
المعهد العالى لحضارات الشرق الأدنى القديم

مجلة حضارات الشرق الأدنى القديم

دورية علمية محكمة

<http://www.east.zu.edu.eg>

الزقازيق

العدد الثانى - السنة الثانية - أكتوبر ٢٠١٦ م - الجزء الأول

رقم الإيداع: ١٨٤٣٥ - الترقيم الدولى (٥٣٣٥ - ٢٠٩٠)

مطابع جامعة الزقازيق

عدد خاص بأبحاث المؤتمر العلمى الدولى

حضارات الشرق الأدنى القديم ومؤثراتها عبر العصور

الذى أقيم خلال الفترة من ١٣-١٥ مارس ٢٠١٦

بالمعهد العالى لحضارات الشرق الأدنى القديم-جامعة الزقازيق

بالتعاون مع كلية التربية الأساسية جامعة بابل

التوراة و نظرية اختلاف اللغات

أ. باقر جاسم محمد

كلية التربية الأساسية، جامعة بابل-العراق

التوراة و نظرية اختلاف اللغات

م. باقر جاسم محمد

كلية التربية الأساسية، جامعة بابل-العراق

توطئة:

لا شك أن لبابل و حضارتها تأثيراً كبيراً في شتى حضارات العالم. و قد اتخذ هذا التأثير صوراً شتى. و من الثابت تاريخياً أن بابل تعد معلماً حضارياً مهماً في بعض العلوم مثل الرياضيات و الفلك و القانون. بيد أن أثر بابل في الثقافات و الحضارات الأخرى لن يتوقف على ما أبدعه البابليون في شتى مظاهر الحضارة فقط، و إنما يتسع ليشمل ما ينسب إلى بابل و برجها الشهير من تأثير حاسم في مسألة مهمة هي مسألة اختلاف اللغات. إذ بعد أن كان البشر يتكلمون لغة واحدة، كما تقول الرواية التوراتية، فإن السؤال حول الكيفية التي تحولت فيها اللغة الواحدة إلى لغات شتى ما زال قائماً. فما هي حقيقة علاقة برج بابل بنظرية اختلاف اللغات؟ و هل تقدم لنا المعارف المتراكمة عن تاريخ مدينة بابل و عن مسار تطور اللغات في العالم القديم أية معونة علمية للوصول إلى فهم أفضل لمدى دقة النظرية التوراتية بخصوص اختلاف اللغات؟ و لكن، قبل الشروع في الإجابة على هذين السؤالين، لا بد لنا الإشارة إلى ضرورة البحث في قضية مهمة أخرى تتربط مع مسألة اختلاف اللغات ترابطاً وثيقاً، ألا و هي مسألة أصل اللغة الأول، و هي مسألة شائكة أخرى ورد ذكر لها في التوراة و في كتب سماوية و غير سماوية أخرى. و الحقيقة أم مسألة أصل اللغة أو اللغات البشرية من أهم القضايا المثيرة للجدل بين المؤرخين و المختصين بالدراسات اللاهوتية و اللسانية. فهل اللغة، أو اللغات، هبة ربانية كما يقول أصحاب نظرية الأصل الإلهي للغة؟ أم أنها نتاج تطور التركيب التشريحي للكائن الإنساني، و ذلك لوجود الحلق الذي يقع بين الحنجرة وبداية التجويف الفم، و هو جزء لا يوجد نظير له في سواء عند الكائنات الشبيهة بالإنسان أو عند سواها؟ أم أنها نتيجة لتقليد أصوات الطبيعة و الحيوان؟ أم أنها نتيجة التطور الحاصل في النداءات غير الكلامية التي كان البشر البدائيين يطلقونها أثناء العمل الجماعي؟ أم أن أصل أصوات اللغة يتمثل في تلك الأصوات التي يطلقها البشر عند الإحساس بمشاعر إنسانية مثل الألم و الغضب و الفرح.^(١) هذه هي حزمة الأسئلة و القضايا التي سنحاول البحث فيها لكي نتوصل إلى فهم أعمق للنظرية التوراتية في اختلاف اللغات.

(١) بصدد مسألة أصل اللغة، لطفاً، أنظر:

في النظرية الدينية لأصل اللغات:

كما سبق القول، فإن البحث في نظرية اختلاف اللغات، يقتضي أولاً البحث في نظرية أصل اللغة أو اللغات البشرية لما بين النظريتين من وشائج واضحة و قوية. و مع أن تاريخ اللسانيات الحديثة يظهر أن مسألة أصل اللغة قد عُدت من الأمور الخلافية التي لا يمكن الركون فيها إلى دليل قاطع، إلا أن ذلك لن يحول دون مناقشة بعض ما ورد بشأنها في المصادر اللاهوتية للوقوف على التصورات الأولى بشأنها، و من ثم الانطلاق إلى البحث في نظرية اختلاف اللغات التوراتية و علاقتها ببرج بابل. إذ كما هو معلوم للمشتغلين في اللسانيات، فإن النظريات بشأن أصل اللغة البشرية تنقسم إلى مجموعتين: ((أ)) النظريات التوقيفية أو الدينية، و ((ب)) النظريات الاصطلاحية أو الوضعية أو الطبيعية. ففي المجموعة ((أ)) هناك النظرية المستمدة من التراث اليهودي المسيحي التي ترى أن الرب هو من طلب من آدم تسمية الأشياء، و هو نفسه من بلبل ألسنة الناس بعد ذلك؛ و النظرية المصرية القديمة التي تذهب إلى أن واهب اللغة للبشر هو الإله رع Ra أو الإله Thoth، و النظرية البابلية التي ترى أن الإله نابو Nabu هو من منحنا اللغة، و النظرية الهندوسية التي تعتقد بأن الإلهة Sarasvati هي من أعطتنا اللغة، ثم النظرية الإسلامية التي تذهب إلى أن الله جل و علا هو من منح اللغة لآدم. و لعل أشهر هذه النظريات الدينية حول أصل اللغة تلك النظرية الدينية المستمدة من العهد القديم (التوراة) و السائدة في الغرب. و تزعم هذه النظرية وجود أصل واحد للغة يستند إلى الرواية التوراتية في الإصحاح الثاني من سفر التكوين: ١٩-٢٠، و قد جاء فيها:

"Now the LORD God had formed out of the ground all the wild animals and all the birds in the sky. He brought them to the man to see what he would name them; and whatever the man called each living creature, that was its name. So the man gave names to all the livestock, the birds in the sky and all the wild animals."

و هذه ترجمتنا لهذا النص التوراتي:

"الآن خلق الرب كل بهيمة وحشية و كل طير من الطين، وجاء بها إلى آدم لير ماذا سيسميها: وكل اسم أطلقه آدم على أي نوع من المخلوقات الحية، فقد صار اسماً له منذئذ، و أعطى آدم اسماً لكل الأنعام و لكل طير في الهواء، و لكل دابة و وحش."^(١)

Yule, George (1985) *The Study of Language*. Cambridge, University Press. PP. 7-9 .

(١) أنظر النص الإنجليزي للإصحاحين الثاني و الحادي عشر من سفر التكوين في التوراة في:

و تفصح القراءة المدققة لهذا النص التوراتي أن أصل اللغة يبقى غامضاً لأن عملية التسمية، أو ما يعرف بالإنجليزية nomenclature، و استناداً إلى النص التوراتي نفسه، جاءت لاحقة لوجود اللغة لأن سيدنا آدم قد استخدم اللغة في تسمية المخلوقات حال أن طُلب الرب منه ذلك، و دون أن نعرف كيف أن الرب، بالمفهوم التوراتي، قد وهبها له، أو كيف علمها لآدم، و متى تعلمها قبل شروعه في تسمية المخلوقات. و من الواضح أن ابتكار آدم لمفردات اللغة، حسبما جاء في التوراة، قد اقتصر على الأسماء دون ذكر شيء عن الأفعال والصفات و الظروف و غير ذلك من أجزاء الكلام فضلاً عن الأنظمة الصوتية و الصرفية النحوية التي تسمح لمن يحوزونها باستعمال اللغة. و هكذا فإن المرويات تشير سؤالاً مهماً حول إمكان التخاطب بين البشر باستخدام الأسماء فقط. و لكي لا تتوقف المناظرة العلمية عند هذا الحد، سنلتزم تفسيراً لهذا الصمت عن ذكر أجزاء الكلام الأخرى على أنه نوع من التعبير البلاغي حين يذكر الجزء و لكن الدلالة تتصرف إلى الكل.

لعل من المهم أن نشير إلى أن الرؤيا التوراتية لعملية التسمية الأولى التي مارسها آدم بناء على طلب الرب تمثل رمزياً أول ممارسة لسانية عملية يقوم بها الإنسان. و لكننا نلاحظ أن هذه الممارسة كانت مجردة من سياقات الاتصال الاجتماعية التي نألفها حينما نستعمل اللغة لأنها جاءت تلبية لأمرٍ إلهي. و بالمقارنة، فإن الرؤيا الإسلامية لمسألة اكتساب الإنسان للغة تخالف الرؤيا التوراتية في نواح مهمة. و قد وردت الرؤيا الإسلامية في القرآن الكريم في قوله تعالى: "و عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا...". (سورة البقرة، الآية ٣١) ففي هذه الآية، تكون اللغة، ممثلة بالأسماء، هبة من الله جل و علا لآدم و تعليماً من لدنه. و هذا مما يفصح عن طريقة تلقي آدم للغة. و هناك اختلاف آخر في سياق هذه الآية ذو طابع حوارى لأنها ترد في مقام الكلام الذي دار بين الله جل و علا و الملائكة. أما مسألة اختلاف الألسنة أو اللغات فإن النظرية الإسلامية تعتمد على الآية الكريمة: "وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ" سورة الروم، الآية ٢٢. و يمكن أن نلاحظ أن اختلاف ألسنة البشر و ألوانهم قد جاء معطوفاً على عملية الخلق نفسها حتى ليتمكن القول أن البشر قد خلقوا مختلفين في اللسان و في الألوان، ذلك لأن القرآن الكريم لم يذكر شيئاً عن الكيفية التي تحول فيها البشر من اللغة الواحدة إلى اللغات المختلفة.

إذن، فإن مسألة أصل اللغة، و هي من أهم القضايا المثيرة للجدل بين المؤرخين و المختصين بالدراسات اللسانية، لا تجد سبيلاً لجواب شافٍ.. فهل اللغات هبة ربانية كما يقول أصحاب نظرية الأصل الإلهي للغة؟ أم أنها نتاج تطور التركيب التشريحي للكائن الإنساني، و ذلك

لوجود الحلق الذي لا يوجد نظير له في الكائنات الشبيهة بالإنسان؟ أم أنها نتيجة لتقليد أصوات الطبيعة و الحيوان؟ أم أنها نتيجة تطوير النداءات البدائية التي كان البشر البدائيين يطلقونها أثناء العمل الجماعي؟ أم أن أصل أصوات اللغة يتمثل في تلك الأصوات التي يطلقها البشر عند الإحساس بمشاعر إنسانية مثل الألم و الغضب و الفرح. و على أية حال فإن القول بنظرية ما لن ينهي الجدل لأن المسألة برمتها تقتصر إلى المعطيات الملموسة التي ترتقي إلى مصاف الدليل العلمي الدامغ الذي يضع حداً لأية شكوك قد يثيرها هذا الطرف أو ذاك. و لكن الحقيقة أن نظرية أصل اللغة لا تقدم سوى بعض الحل لمسألة أخرى تخص القدرة البشرية على الكلام بلغات مختلفة. فإذا كانت اللغة البشرية الأولى واحدة، فما الذي أدى إلى أن تختلف اللغات اختلافاً واسعاً؟ وكيف تحول هذا الاختلاف، بمرور الأزمان، إلى عائق كبير يحول دون التفاهم بين كثير من الأقوام و المجموعات البشرية؟ فنحن نعرف من خلال الأطلس اللغوي أن لدينا من اللغات حوالي ستة آلاف لغة، و هو ما يتجاوز عدد الأعراق و القوميات بكثير. و هذا يطرح مسألة مهمة هي أن وحدة الأصول العرقية للبشر، إن كانت حقيقة تاريخية، إنما هي وحدة مقترنة بوحدة الإنموذج اللساني أو وحدة اللغة التي تحدث بها البشر في البداية، وهو ما يقتضي وجود نظرية ثانية مكملة تقدم تفسيراً للتعارض بين وحدة اللغة الأولى و واقع الاختلاف الواسع بين اللغات الذي أعقب تلك اللغة الافتراضية الأولى.

و حين نعود إلى علاقة برج بابل المدرج (إيتيمينانكي) المفترضة بالنظرية التوراتية التي تفسر اختلاف اللغات نجد أنها النظرية الدينية الوحيدة التي تشير إلى هذه القضية الشائكة و تحاول، في الوقت نفسه، أن تقدم تفسيراً لها. فقد وردت هذه الرواية لمسألة اختلاف اللغات في التوراة، و تحديداً في سفر التكوين و في الإصحاح ١١ الفقرات ١-٨ على النحو الآتي:

“Now the whole earth used only one language, with few words. On the occasion of a migration from the east, men discovered a plain in the land of Shinar, and settled there. Then they said to one another, "Come, let us make bricks, burning them well. "So they used bricks for stone, and bitumen for mortar. Then they said, "Come, let us build ourselves a city with a tower whose top shall reach the heavens (thus making a name for ourselves), so that we may not be scattered all over the earth. "Then the Lord came down to look at the city and tower which human beings had built. The Lord said, "They are just one people, and they all have the same language. If this is what they can do as a beginning, then nothing that they resolve to do will be impossible for them. Come, let us go down, and there make such a babble of their language that they will not understand one another's speech. Thus the Lord dispersed them from there all over the earth, so that they had to stop building the city. Therefore its name was called Babel, because there the LORD confused the language of the whole earth; and from there the LORD scattered them abroad over the face of the whole earth.”
GENESIS 11:1-9

و ترجمة النص:

"في تلك اللحظة كان كل من في الأرض يستعملون لغة واحدة فقط، و هي لغة ذات كلمات قليلة. و عند الهجرة من الشرق، اكتشف البشر سهلاً في أرض شنعار، [الاسم العبراني لجنوب العراق. الباحث] فاستقروا هناك. ثم قال بعضهم لبعض، "تعالوا، نصنع الآجر، و نشويه بالنار على نحو جيد." و هكذا استعملوا الآجر بديلاً للحجر، و القار بديلاً للملاط. ثم قالوا، "تعالوا، هلموا نبني لأنفسنا مدينة كبيرة لها برج تبلغ قمته السموات (حتى نجعل لأنفسنا سمعة و صيتاً)، و حتى لا نتفرق في أرجاء الأرض." ثم نزل الرب لينظر إلى المدينة و البرج اللذين بناهما بنو البشر. قال الرب، "إنهم شعب واحد فقط، و هم جميعاً يتكلمون لغة واحدة. فإذا كان هذا ما يقدرّون عليه في البدء، لن يكون هناك أمر محال يحول بينهم و بين تحقيق ما يرومون. فهيا، لننزل، و نجعل من لغتهم هذراً و هذياناً / لنبلبل لغتهم حتى لا يعودوا يستطيعون فهم كلام بعضهم البعض." و هكذا شتتهم الرب في كافة أرجاء الأرض، و ذلك حتى يتوقفوا عن بناء المدينة. وبذلك كان اسمها بابل، لأن الرب قد بلبل لغتهم. "

GENESIS 11:1-9

و هناك ترجمة أخرى وردت في النسخة العربية من التوراة لهذا النص نوردته في أدناه:

"كَانَتْ الْأَرْضُ كُلُّهَا لِسَانًا وَاحِدًا وَلُغَةً وَاحِدَةً. ٢ وَحَدَّثَ فِي ارْتِحَالِهِمْ شَرْقًا أَنَّهُمْ وَجَدُوا بُقْعَةً فِي أَرْضِ شِنْعَارَ وَسَكَنُوا هُنَاكَ. ٣ وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «هَلُمَّ نَصْنَعْ لِبْنًا وَنَشْوِيهِ شَيْئًا». فَكَانَ لَهُمُ اللَّبْنُ مَكَانَ الْحَجَرِ، وَكَانَ لَهُمُ الْحُمْرُ مَكَانَ الطِّينِ. ٤ وَقَالُوا: «هَلُمَّ نَبْنِ لِنَفْسِنَا مَدِينَةً وَبُرْجًا رَأْسُهُ بِالسَّمَاءِ. وَنَصْنَعُ لِنَفْسِنَا اسْمًا لئَلَّا نَتَبَدَّدَ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الْأَرْضِ». ٥ فَنَزَلَ الرَّبُّ لِيَنْظُرَ الْمَدِينَةَ وَالْبُرْجَ اللَّذَيْنِ كَانَ بَنُو آدَمَ يَبْنِيَانَهُمَا. ٦ وَقَالَ الرَّبُّ: «هُؤُودَا شَعْبٌ وَاحِدٌ وَلِسَانٌ وَاحِدٌ لَجَمِيعِهِمْ، وَهَذَا ابْتِدَآؤُهُمْ بِالْعَمَلِ. وَالْآنَ لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِمْ كُلُّ مَا يَنْوُونَ أَنْ يَعْمَلُوهُ. ٧ هَلُمَّ نَنْزِلْ وَنُبْلِلْ هُنَاكَ لِسَانَهُمْ حَتَّى لَا يَسْمَعَ بَعْضُهُمْ لِسَانَ بَعْضٍ». ٨ فَبَدَّدَهُمُ الرَّبُّ مِنْ هُنَاكَ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الْأَرْضِ، فَكَفُّوا عَنْ بُنْيَانِ الْمَدِينَةِ، ٩ لِذَلِكَ دُعِيَ اسْمُهَا «بَابِلَ» لِأَنَّ الرَّبَّ هُنَاكَ بَلَّلَ لِسَانَ كُلِّ الْأَرْضِ. وَمِنْ هُنَاكَ بَدَّدَهُمُ الرَّبُّ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الْأَرْضِ^(١).

و قبل البدء في بحث الأسئلة التي أثارناها، لا بد من ملاحظتين مهمتين: الأولى، أن المكان المفترض الذي جاء منه كل البشر، حسب النص الإنجليزي للتوراة، إنما يقع إلى الشرق من سهل شنعار أو بلاد ما بين النهرين. و هذا ما يفهم من عبارة "On the occasion of a migration from the east"، و هو ما أثبتناه في ترجمتنا للنص. أما ما ورد في النسخة العربية من الكتاب المقدس فهو كالاتي: "و حدث في ارتحالهم شرقاً" و هو ما يعني أنهم كانوا يقطنون إلى الغرب من سهل شنعار و لذلك فإنهم قد ارتحلوا شرقاً. و هذا التناقض بحاجة إلى بحث خاص يستقصي دراسة النص العبري و

^١ مد للإصحاح ١١ من سفر التكوين في التوراة في الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس، القاهرة، ط ٢، ص ٨.

النص اللاتيني للتوراة و معرفة سبب هذا التناقض الواضح، و هل هو من أخطاء الترجمة. و الثانية أن ما ورد من أن مدينة بابل اكتسبت اسمها نتيجة لبلبله الرب للسان أهلها ليس دقيقاً ، فاسم مدينة بابل مأخوذ من اسم بابل باللغة الأكديّة، و هو: "باب إيلو"، أي "باب الآلهة" لأن من المعروف أن مدينة بابل كانت من المدن المقدسة التي ضمت ما يعرف بمجمع الآلهة حسب عقائدهم.

ظاهرياً يؤكد هذا النص التوراتي أن مشروع بناء برج بابل المدرج (إيتيمينانكي) أو E-temen-an- (ki) و يعني بيت مؤسسة السماء على الأرض، كان تعبيراً عن طموح إنساني يعبر عن روح الفخر و التباهي بين البشر، فالبرج يجب أن يرتقي في الأعالي حتى يجعل بناته لأنفسهم صيتاً، كما جاء في النص، و لا توجد أية إشارة إلى الرغبة في تحدي الرب، و هو مما يتعارض مع ما نفهمه من اسم مدينة بابل في الأكديّة الذي يشير إلى باب الإله.^(١) وهو في الإغريقية Βαβυλών، و بذلك ينصرف معنى اسم بابل إلى عبادة الآلهة و لا علاقة له بعملية بلبله الألسن. إذن فقد فشل بناء البرج ليس لأسباب فنية أو تكنولوجية إذ لا توجد فيه أية إشارة إلى مثل هذه الأسباب، و إنما يعود فشل المشروع برمته إلى أسباب تتعلق بخوف الرب من البشر، و من قدراتهم على البناء التي ربما تدفعهم إلى تحدي الرب نفسه! و يظهر تحليل هذا النص أن الرؤيا التوراتية لاختلاف اللغات لم تكن وليدة تصور ديني عراقي أو بابلي عرفته الحضارة العراقية نتيجة تأمل في هذه المسألة، و إنما هو تصور عبراني كان نتيجة لعيش هؤلاء العبرانيين الذين أسرههم نبوخذ نصر (الذي حكم للفترة من ٦٠٤ و لغاية ٥٦٢ قبل الميلاد تقريباً) و جلبهم إلى بابل فيما يعرف بالسبي البابلي. و في بابل العظيمة تعرف العبرانيون على اختلاف لسانهم عن اللسان الأكدي الذي كان سائداً في بابل في ذلك الحين، فضلاً عن أن بابل كانت عاصمة لدولة قوية و واسعة النفوذ و التأثير مما جعل بعضاً من أبناء الشعوب الأخرى يأتون إليها للتجارة أو لأسباب سياسية (أنظر خارطة الإمبراطورية البابلية في الملحق حيث يظهر أنها كانت تشمل مناطق واسعة تضم شعوباً متعددة و هي شعوب تتحدث بلغات مختلفة، و من هذه الشعوب العبرانيون). و هذا مما يجعل من ظاهرة اختلاف الألسن واضحة و ملموسة تماماً في بابل القديمة.

و تظهر المقارنة بين بعض الرسوم أن صورة برج بابل المتخيلة استناداً إلى الرواية التوراتية تختلف كلياً عن صورة البرج المرسومة استناداً إلى المعطيات الأثرية. و فالصور المتخيلة التوراتية يبدو فيها البرج ذا ارتفاع شاهق للغاية حتى لا يكاد البصر يرى قمته. و هو ارتفاع لا يمكن تحقيقه مطلقاً باستعمال مواد البناء و وسائله في الفرات الأوسط في تلك الأزمنة القديمة. بينما تكون الصورة المستندة

(١) حول أصل اسم بابل، أنظر: الموسوعة الحرة ويكيبيديا. تاريخ الزيارة ٢٠١٢/٦/٣.

إلى المخلفات الأثرية في موقع البرج و بعض الآثار الموجودة في متحف اللوفر أن طبقات البرج لم تزد على سبع و أن ارتفاعه لم يتجاوز ٩١،٤٨ متراً أو ٩١،٦٦ متراً، و هو ارتفاع معقول و يتناسب مع أبعاد قاعدته التي تكاد تتساوى مع الارتفاع. (راجع الصور و مخطط البرج في الملحق)

و لو عدنا إلى أسباب فشل بناء البرج، على وفق ما يرويه سفر التكوين، فإننا سنلاحظ، أن بناء البرج يتوفرون على أسباب عديدة للنجاح في عملهم. و هذه الأسباب هي:

١. وجود بنية سياسية و اقتصادية و اجتماعية لا تتيسر إلا مع وجود كيان مديني واضح المعالم و وجود دولة قوية، تسمح باتخاذ قرار بناء ضخم للغاية و توفر له المستلزمات المادية و البشرية. و لكن المشكلة تنجم من افتراض أن البنية السياسية للدولة القوية، بحسب التوراة، تبدو سابقة لقرار إنشاء مدينة بابل وليس لاحقة لها زمنياً.

٢. المهمة الواضحة، إذ بحسب سفر التكوين، تتلخص هذه المهمة في النص: "تعالوا، هلموا نبني لأنفسنا مدينة كبيرة لها برج تبلغ قمته السموات (حتى نجعل لأنفسنا سمعة و صيتاً". و هذا يتناقض مع ما نعرفه في الأركيولوجيا من أن نشوء المدن الأولى في الحضارات القديمة لم يكن بأمر من حاكم أو ملك أو نتيجة تصور أو قرار مسبق من الجماعة البشرية بقدر ما كان هذا النشوء عفويًا و تدريجيًا و يأخذ زمناً طويلاً نتيجة التطور الاقتصادي و الحضاري و السياسي. و فضلاً عن ذلك، فإن نشوء مدينة بابل نفسها لم يكن نتيجة قرار اتخذته جماعة معينة لأسباب ليست واضحة تماماً كما في النص التوراتي.

٣. وجود خطة هندسية مناسبة لتنفيذ بناء المدينة و البرج بافتراض أن هذه مدينة بابل هي الأولى في الحضارة البشرية. و هو افتراض ينقضه ما نعرف من أن مدناً أخرى كثيرة وجدت قبل بابل في جنوب العراق، مثل مدن أوروك و أور و سبار، و في مناطق أخرى من العالم القديم، مثل أريحا.

٤. تيسر القوة الاقتصادية و الخبرة البشرية اللازمين للبناء الذي يفترض وجود سلطة تستطيع أن تستثمر ذلك في مشروع ضخم مثل بناء مدينة و برج.

٥. تيسر المواد اللازمة للبناء، و لعل خلو منطقة وسط سهل شنعار من المواد الحجرية اللازمة للأبنية الضخمة قد أوجب عليهم ابتكار صناعة الآجر، أو الطابوق، من الطين ليدخل في مجال معالجة نقص الحجر في منطقة بابل. و قد أشار النص التوراتي إلى الغرض من صناعة الآجر بوضوح. كما أشار أيضاً إلى استعمال القار بديلاً للملاط. و هذا جزء مهم من تكنولوجيا البناء آنذاك.

٦. تيسر الوقت اللازم، و تشير بقايا الأحجام الكبيرة لبعض الأبنية في موقع مدينة بابل الأثرية إلى أن أهل بابل كانوا يألّفون أعمال البناء الضخمة، و ما تقتضيه من وقت طويل لإنجاز بناء ضخم بحجم برج بابل المفترض. هذا فضلاً عن وجود أبنية كثيرة على طراز الزقورة أو برج بابل في أنحاء متفرقة من بلاد وادي الرافدين.^(١)

و إذا كانت هذه الأسباب كافية لنجاح بناء البرج، فما الذي أدى إلى فشل البناء؟

مرة أخرى فإننا، و بالاستناد إلى رواية سفر التكوين نفسها، نجد أن الأمر الجوهري الذي يفتقر إليه بناء البرج الذي أدى إلى فشلهم في إنشاء البرج في نهاية المطاف و من ثم أدى إلى تفرقهم في الأرض إنما هو انعدام اللغة المشتركة أو وسيلة التفاهم. و هو أمر كانت نتيجته انعدام التواصل بين أفراد الجماعة البشرية في بابل. و قد ترتب على ذلك فقدان التنظيم لأنهم فقدوا القدرة على الكلام مع بعضهم البعض، و فقدوا القدرة على التعاون لإنجاز عمل ضخم. و حين لا يكون هناك تعاون، يتعثر العمل، بل يتوقف تماماً.

و بناءً على النتائج التي ترتبت على اختلاف أسنة بناء برج بابل المدرج (إيتيمينانكي)، يمكننا أن نضيف إن الافتقار إلى التواصل نتيجة الاختلاف في الألسنة قد أدى إلى نشوء حواجز نفسية و ثقافية مما أدى إلى النزاع و إلى المشاعر السلبية و الغيرة و شيوخ البغضاء بين الأفراد و الجماعات. و هكذا أخذت كل جماعة تنتبذ لنفسها مكاناً بعيداً عن الجماعات الأخرى مفضلة العزلة على التعاون و الحوار. و قد أحدث ذلك نوعاً من التباين الثقافي.

و بصدد اللغة و ما تنطوي عليه من خزين ثقافي، يقول بول بلوم: "أن كل لغة تحتوي في داخلها على الميتافيزيقا الخاصة بها - و على إحالاتها الضمنية فيما يخص أي من أجزاء الواقع يمكن عدّه جديراً بالحديث فيه، و كيف يمكن ربط هذه الأجزاء مع بعضها."^(٢) و هذا يعني أن الاختلافات في اللغات نتيجة حتمية لاختلاف البيئة الطبيعية و الاجتماعية و التاريخية لكل مجموعة بشرية، و ليس لأمر دبره آله بني إسرائيل الغاضب.

(١) أندرية بارو (١٩٥٤) برج بابل. صدرت ترجمة جبرا إبراهيم جبرا لهذا الكتاب في بغداد، وزارة الثقافة و الإعلام. العام ١٩٨١. ص. ٦ ونسبتق الإشارة هنا إلى أن بارو قد أحصى حوالي ثلاثين زقورة في بلاد ما بين النهرين.

(٢) أنظر:

Paul Bloom (2002) , Explaining Linguistic Diversity" in American Science. Issue of July-August 2002. Vol, 90, No. 4.

إن ما ورد في التوراة من قصة لاختلاف اللغات و لتفرق البشر في الأرض و تحولهم إلى أمم مختلفة لساناً و ثقافة يترتب عليها نتيجتان لاختلاف الأمم و الشعوب. الأولى أن البابليين هم أصل الشعوب الأخرى، و هي مسألة ينكرها علم الأنثروبوجيا، و الثانية أن تلك الشعوب قد ورثت من البابليين اختلاف الألسنة. و لكن الأدلة التاريخية و الأركيولوجية و اللغوية، كما يذكر المتخصصون، تثبت أن شعوباً أخرى كانت تسكن في أرجاء الأرض، و هي شعوب أنشأت مدناً عظيمة قبل ظهور مدينة بابل، وسواء أكان ذلك في جنوب بلاد ما بين النهرين حيث أنشأ السومريون مدناً عظيمة مثل مدينتي أريدو و أور و سبار، أو في وادي النيل حيث ظهرت الحضارة الفرعونية في زمن قريب جداً من زمن ازدهار الحضارة السومرية، أو في وادي نهر الكانج في الهند حيث ظهرت حضارة عظيمة و أنشأت مدناً كبيرة. و قد تميزت كل هذه الحضارات و المدن السابقة لظهور مدينة بابل بكونها ذات لغات مختلفة اختلافاً جذرياً^(١) وهذا الرأي تؤكده المعرفة العلمية المستمدة من الدراسات الأركيولوجية و التاريخية و اللسانية. لذلك يمكن الاستنتاج أن نظرية اختلاف اللغات اللاهوتية التي وردت في التوراة تفتقر إلى الأدلة العلمية الرصينة من الناحيتين الأركيولوجية و التاريخية، و هي تتناقض مع النتائج التي توصلت إليها الدراسات اللسانية بخصوص قضية اختلاف اللغات. و من هنا يمكننا القول أنها نظرية يتعذر القبول بها علمياً. و أخيراً يبدو من المنطقي الاستنتاج أن هذا الموقف الذي يدحض النظرية اللاهوتية التي تفسر اختلاف اللغات يفرض على الباحثين في تاريخ اللغات الإقرار بأن اختلاف اللغات حالة دائمة صاحبت نشوء اللغات كافة لأن اللغات كانت و ما زالت مختلفة لكونها قد نشأت في مراكز و تجمعات بشرية متعددة في وقت متقارب، و لم يكن اختلافها حالة أو مرحلة أعقبت وجود لغة واحدة كانت سائدة في المجتمع البشري.

و إذا كان سفر التكوين قد تضمن أول إشارة رمزية إلى جذر الاختلاف بين أهل بابل، التي لم تكتسب اسمها بعد بحسب الرواية التوراتية، إلا أنه حين يعزو فعل الاختلاف اللساني إلى أمر رباني، أو قد نقول إلى كيد رباني، فإنه يغفل العوامل الاجتماعية و السياسية و الجغرافية و البيئية المختلفة التي

(١) ويعتقد أحد المتخصصين بدراسة آثار العراق القديم أن بعض المدن السومرية، مثل سبار، تعود إلى فترة ما قبل الطوفان. أنظر "مدن العراق القديم" دروثي مكاي. ترجمة يوسف يعقوب مسكوني. بغداد، مطبعة شفيق. ١٩٦١. الصفحات ٣١، ٣٢، ٧٣، ٨٩. و يشير الباحث مايكل سميث إلى حقيقة أن مدينة أوروك هي أقدم مدن العالم، و أن الانتقال من الحياة القبلية البدوية إلى مستوى الدولة قد حدث على نحو مستقل و في مناطق مختلفة من العالم بعد الألف الثالث قبل الميلاد. و أنه ما أن ظهرت المجتمعات المعقدة حتى أصبح ظهور المدن أمراً محتملاً. للمزيد، لطفاً، أنظر:

Smith, Michael (2002), The Earliest Cities. In George Gmelch and Walter P. Zenner (eds) Urban Life: Readings in the Anthropology of the City. 4th edition. (p. 5-6)..

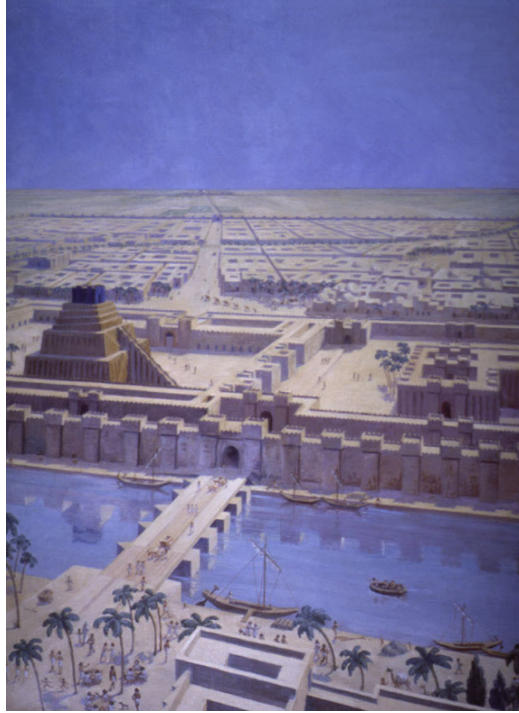
و من الغريب ألا يرد ذكر مدينة بابل في الجداول الثلاثة التي تضمنها كشاف مدن العالم القديم التي ظهرت بين ٣٥٠٠ و ١٢٠٠ قبل الميلاد، و نشره جورج مودلسكي من جامعة واشنطن في العام ١٩٩٧. أنظر:

Modelsky, George (1997), Cities of the Ancient World. Washington, University of Washington.

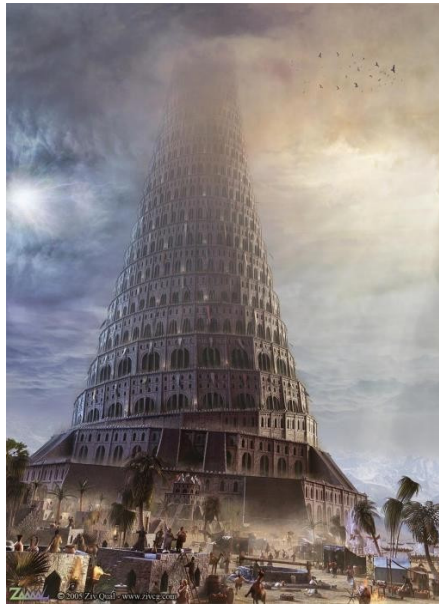
تؤدي بالضرورة إلى اختلاف اللغات. و هكذا يظهر أن الرواية التوراتية لأسباب اختلاف ألسنة البشر ليست مما يستقيم مع المنطق الديني أو المنطق العقلي أو المنطق العلمي، فهي رواية تتناقض مع الدراسات الآثارية الحديثة، و مع الدراسات التي تبحث في الاختلاف بين الألسن. و إذا أضفنا إلى ذلك أن التنقيبات الأثرية تشير إلى أن برج بابل ليس سوى زقورة من عدد كبير من الزقورات، و هناك زقورة مثيلة لبرج بابل تقع في منطقة بورسيبا أو برس نمرود، و أن هذه الزقورة أو البرج قد كرس للعبادة و ليس لتحدي الرب بحسب ما يقوله أندريه بارو، ذلك أن برج بابل "لم يكن تعبيراً عن كبرياء الإنسان." و يضيف بارو إلى ذلك قوله أن هذا البرج ليس "... قبضة يرفعها الإنسان تحدياً في وجه السماء، بل يداً يرفعها ضراعة، و صرخة يطلقها استغاثة بالسماء"^(١) وإنما معبد مكرس لعبادة الآلهة حسب الديانات التي كانت سائدة آنذاك. و هذا الرأي، الذي يستند إلى دراسة مستفيضة للطقوس التي كانت تمارس في بابل القديمة، يتعارض كلياً مع الزعم التوراتي، و فضلاً عن ذلك، فقد أحصى بارو حوالي ثلاثين زقورة في بلاد ما بين النهرين. و هذا يظهر أن سبب الإشارة الواردة في التوراة إلى زقورة بابل، أو برجها حصراً، إنما جاءت لأن العبرانيين الذين أسروا في بابل لم يكونوا على علم بوجود الزقورات الأخرى. و لذلك، يجوز لنا القول أن هناك أسباب موضوعية كثيرة تجعلنا لا نقبل هذه الرواية التي تمثل رؤيا عقديّة لجماعة دينية بعينها فقط، و ذلك على الرغم من شيوعها في بحوث و دراسات كثيرة. و نعتقد أن شيوعها إنما يرجع إلى أنها قد حظيت بمكانة الرواية المقدسة في الموروث الثقافي الغربي. و من المعلوم أن الروايات المقدسة تقطع السبيل على محاولة مناقشتها علمياً لأنها تقع في حقل العقائد. و لكن المعرفة العلمية المستمدة من علوم مختلفة لن تتوقف عن مسعاها الدؤوب للوصول إلى الحقيقة. و لعل خير دليل على ما نذهب إليه أن الصور الفنية المتخيلة لمدينة بابل القديمة و برجها التي وضعناها في الملحق تظهر اختلافاً جسيماً في حجم البرج و ارتفاعه. و يمكن تفسير هذا الاختلاف استناداً إلى كون الفنان يعتمد على الحكاية التوراتية في تصويره لبرج بابل، و في هذه الحالة يكون البرج هائل الارتفاع و الحجم حتى أنه يطاول عنان السماء، أو أن الفنان يعتمد المعطيات الأثرية فيكون البرج ذا حجم و ارتفاع يتناسبان مع ما كانت عليه الأبنية في بابل القديمة من حيث الارتفاع و الحجم.

(١) أندريه بارو. مصدر سابق. ص. ٥-٦.

ملحق ببعض المصورات الخاصة بمدينة بابل و برجها:



١- صورة متخيلة لمدينة بابل وبرجها المعروف باسم (أتيمنانكي) تعتمد المعطيات الأثرية



٢- صورة متخيلة لبرج بابل و فيها يظهر البرج شاهقاً على نحو لا يدركه البصر انسجماً مع منطق القصة التوراتية.



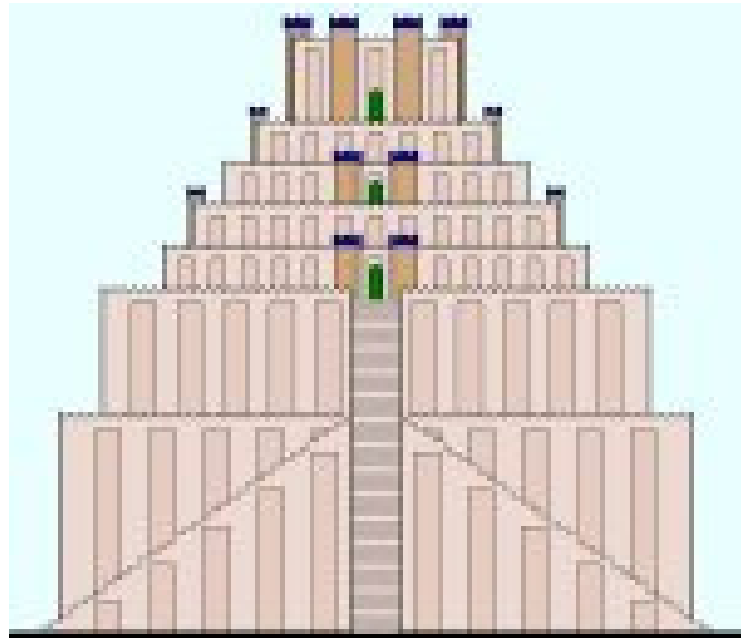
٣- صورة فوتوغرافية حديثة لبقايا أساسات برج بابل



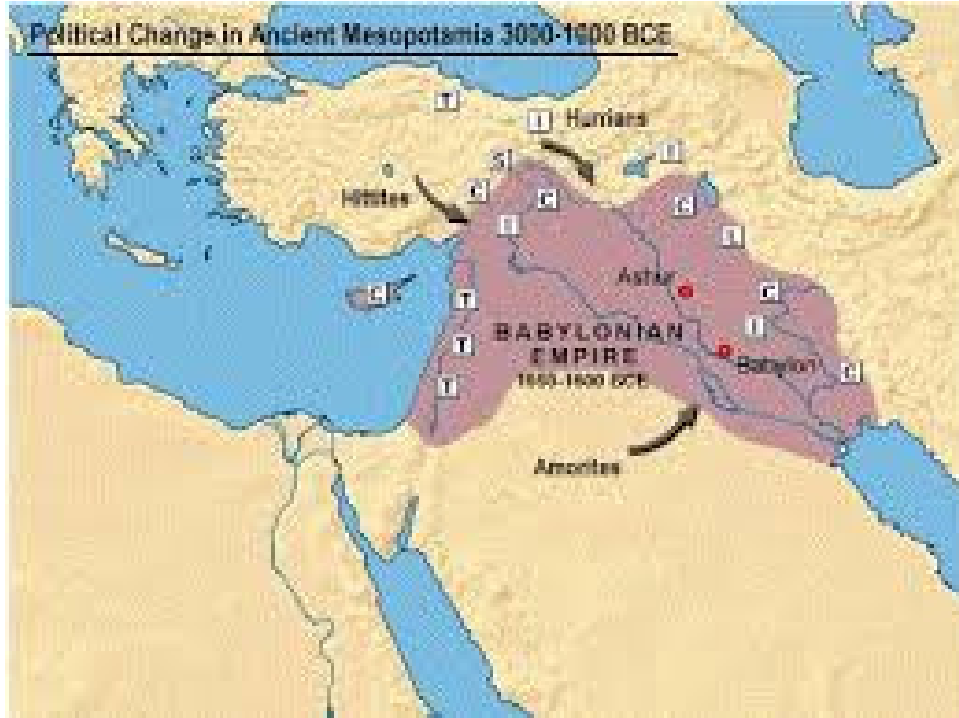
٤- صورة متخيلة للبرج مبنية على معطيات الحفريات الأثرية الموجودة في متحف اللوفر



٥- صورة متخيلة لجنائن بابل المعلقة و على الضفة الثانية لنهر
الفرات يظهر برج بابل و قد طاول الغيوم



٦- مخطط البنية المعمارية لبرج بابل و طبقاته السبع و سلالمة
الجانبية.



٧- خارطة الإمبراطورية البابلية (من ١٩٥٠ إلى ١٦٠٠ قبل الميلاد)
 التي تمتد من رأس الخليج العربي و تضم كلاً من العراق و
 سوريا و فلسطين و لبنان و الأردن فضلاً عن جزء من ديار بكر في
 تركيا الحديثة.